AnIsl 35 (2001), p. 77-100

Nāṣir Al-Rabbāṭ

madīna-Al « al-mawā’iz wa al-i’tibār bi-dīkr al-ḥiṣāt wa al-āṭār »
wā al-tārīḫ wa al-sulṭa: Al-Maqrīzī wa kitābu-hu al-rā’id «Al-mawā’iz wa al-i’tibār bi-
dīkr al-ḥiṣāt wa al-āṭār ».

Conditions d’utilisation

L’utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l’éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l’éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724709575 Mélanges de l’Institut dominicain d’études orientales 38
9782724709544 Food and Drink in Egypt and Sudan
9782724709766 Oasis ottomanes
9782724709216 Costumes of Egypt. The Lost Legacies.
9782724710267 Costumes of Egypt. The Lost Legacies. (Limited Edition)
9782724710106 Abréviations des périodiques et collections en usage à l’Ifao, 8e éd.
9782724709629 Catalogues ostraca hiératiques non littéraires de Deir el-Médînêh
9782724709704 The Kiosk of Taharqa

© Institut français d’archéologie orientale - Le Caire
ناصر المرياط

كلما التفاح عبر الزمن أهمية حلقة اللقاء وطروحه غرافية مكان اللقاء. وعندما يشرح ابن شلبي للمقريزي ما حل بموقع خان الخليلي في زمانه هو أي في القرن العشرين، ينهد المقريزي ويقول، «لم يبق إلا اسم… آه يا مصر كم تخطف ذاكرتك من أسماها!».

هذه العبارة القصيرة تختصر مكانة المقريزي في الوعي المصري، المعاصرين كصاحب أوسع وأشمل وأعمق كتاب عن تاريخ مصر الفرعوني. فهو الذي حفظ ذكرى العديد من الامكانيات التي اندثرت بحفظه لاسمائها، وهو أيضاً الذي حفظ وصف هذه الامكانيات والقصص التي نسخت حولها مما منحها بعدًا تاريخيًا بغض النظر عن اختلافها لما أبقاهًا حية في أفدة المعاصرين. فالمقريزي إذن لعب وساهم بدورًا مهمًا في خطاب الهوية الوطنية المصرية، فهو الذي يقدم تاريخ المكان وتاريخ الناس، أي الأجداد، الذين عاشوا فيه، على الأقل حتى القرن الخامس عشر. أي أن كتاب المقريزي عن مصر أصبح في مصر هذا المفعم بالوطنية مؤلم ومخزون التراث الوطني كما عرفه المفكر الأمريكي في شؤون التراث دافيد لونثال (David Lowenthal) بعد تجربته القومي، كتاربخ سهدي متكامل، والمكاني، كتاربخ متكامل، في الوقت الذي اعتنى فيه الممثلين الأصليين، أي الناس والأبنية؟ هذان البعدان يشكلان فيما بينهما الدعمات الأساسيتين لأي شعور بالتراث الوطني، ذلك المكون الأساسي للهوية الوطنية مع غيره من العناصر الأساسية كاللغة والأرض والصهر المشتركة. وبالتالي فالمقريزي قد أصبح اليوم عالماً وداعيًا ورازاً في الشعور والأخلاقي المصري المعاصرين ليس فقط بفضل المعلومات التي حفظها في كتابه عن الخطيط، بل وكما حاولت أن أبين في هذا البحث، يفضل خليجه التاريخي العميق نفسه الوطني شديد الانتماء والعارم المبدئين في تضاعيف الكتاب. وهذه مكانة لعمرى يستحقها.


الدينية وال بتاريخ والسلطة: المغرب العربي و كتابه المراذ: المواضيع والأعمال بذكر الخريطة والأمازية،
من خلال تواصله مع الكتبات التصوفية الشرقية القروسطية، وبخاصة فلسفة ابن عربي
وابتعاه، وتجاربه في إعادة صياغتها روياً وتعميرًا. فهو هنا، بعد تجارب مماثلة أودعها
معظم كتبه التي نشرها في التسعينيات وبدايات التسعينيات، يستلهم من العمارة الكثير
ويمجلها من المعايير المبتغاء المباشر والصريح إلى بث لرسائل خفية يصعب التصريح
بضمانها لصعوبة العوامل المضادة للوقت. 

ولم يقتصر ظهور المغري في الأدب المصري الحديث على الرواية التاريخية أو شبه
التاريخية أو السيرة الذاتية كما في أعمال الغزالي، بل تعددًا ليظهر في نوع أدبي
قابل الانتشار في الأدب العربي مقارنة بطبغيان في آداب ثقافات أخرى: الخيال العلمي،
وبالتحديد روايات السفر عبر الزمن. فالمغري نفسه يظهر كشخصية متميزة في واحدة
من أكثر الروايات المصرية المعاصرة سخرية ونقدًا، وبهيئة تشاؤماً من الوضع الصعب
الذي تمر به البلاد. "رحلات الطرشنجي الخلاض" (1991) خيري شلبي. في هذه
الرواية الخيالية يتقل الناوي، ابن شلبي أو الكاتب نفسه، في الزمان القاتل الماضي
من دون أن يكون له أدنى سيطرة على سفره عبر الزمن من أجل هدف مضحك:
حضور احتفال أول يوم من رمضان الذي يقيمه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بمناسبة
انتهاء أعمال بناء في عاصمته الجديدة القاهرة. ولكن الهدف الأعمق من هذه الرحلات
العشوائية على الأغلب هو تمكين الروائي/الكاتب من بناء شخصية مصرية متسامحة،
مرحة، طيبة القلب وأزمنة البعد، ربما كمحاولة من خيري شلبي لدفع الشعور الكبير
بالعجز عن فهم النطاقات المعاصرة في مصر حيث يسود التعب والتتصاعد والانغلاق. 
ولايتمكن الرواي من الوصول إلى دعوته، بما تبتلعه وهو يرمي من زمن قاهري آخر
قبل وبعد بناء القاهرة ومروراً بعهود الفاطميين والطوفييون والممالك. وهو في غيابه عبر
الزمن يمر بشخصيات فوق زمنية مثله، كابن الحكم وابن تغيير بردي وساندري 1 لينبول
صاحب كتاب تاريخ القاهرة، ولكن أهمها تقي الدين المغري الذي يلعب في الرواية دورًا
أساسيًا كدليل ابن شلبي في كل ما يتعلق بتاريخ القاهرة السياسي والمعماري. فهو شيخ
جليل مهم بما تابعة تاريخ القاهرة العمراني أينما حفل وهمها حصل له. وهو يشرح لابن شلبي

Michael Cooperson, «Remembering the Future: Arabic
Time-Travel Literature», Edebiyat 8 (1998): 171-89,
ناصر المرياط

أشكال توضيحية أو مخططات على النص الوصفي التفسيري مع أنه كان قطعاً مطلعاً على الكتب العثمانية الأوروبية الحديثة، وعلى "وصف مصر" بالذات. ولكن "خطط" مبارك على عكس "خطط" الفريزي لا تعمل في طيات تحليله العثماني هموماً اجتماعياً ولا تنبيه عن نفس نقدي قوي، بل ولا حتى توحي بان هناك علاقة مباشرة بين العرمان والسياسية على الرغم من أنها كتبت على الغلب بهدف حصر منجزات الخديوي اسماعيل، راعي مبارك الأصلي، وابنه توفيق الذي أخذ الكتاب اسمه 38.

ومازال الفريزي حتى يومنا هذا يشغل موقعًا متميزاً بالنسبة للمؤرخ الغير من المصريين وغيرهم الذين يولون عليه في بحثهم في تاريخ القاهرة العثماني وتاريخ مصر بل وحتى النقاط المهمة في التاريخ الثقافي الإسلامي 39. وهو بالإضافة لذلك يحتل موقعًا متميزًا في وجدان المؤرخين المصريين المعاصرين الذين يشعرون باتخاي عقلي وعاطفي معه من خلال وطبيعته الواضحة في الخطط حتى أن بعضهم، كمحمد مصطفى زياة وجمال الدين الشيلى، نعه بالوطني الغيور بغض النظر عن أنه عاش 40 سنة قبل ظهور فكرة الوطنية كما نعرفها.

ولم بєن الناتج الفريزي والإعجاب بخططه محسورًا في المجال التاريخي بل تجاوزه في السنين الأخيرة لبلغ المجال القصصي والروائي على يد روائيين كبار مثل جمال الغنيطاني الذي تقمص دور الفريزي في مجموعة صغيرة "خطط الغنيطاني" (1880) التي يمكن رؤيتها كاستكمال معنوي ل تاريخ عمران القاهرة الذي بدأه الفريزي في محاولة منه لحفظ ذكري العمران الذي ولي. ولكن "خطط الغنيطاني" تؤثر لقاهرة معاصرة بأسلوب فرداني، غير سردي أساساً، يتحمور حول علاقة الكاتب نفسه الحتمية والخاصة بالقاهرة الشعبية المعاصرة، وحول رؤيته السياسية النقدية لتغير ملامح المدينة وطبولوجيتها بتغير رموز وأشكال السلطة فيما وتطور وسائل قمعها وسيطرتها على الراي العام. وقد خط الغنيطاني خطوة جريئة جديدة في كتابه "سفر البنيان" (روايات الهلال، سبتمبر 1997) حيث تماهي مع العمارة نفسها وأحناها مع عناصرها المكونة، محولاً إياها إلى أدوات تعبيرية عن فلسفة وجودية التي طورها بشكل حديث.

وأخيراً، من أجل مراجعة تأثيره على المؤرخين المعاصرين:


© IFAO 2023

Anisl en ligne
https://www.ifao.egnet.net
ناصر المريت

العلمي أو الفقهى تسمح بهذا النوع من التفكير والاستنتاج. ولكن، بنظرية المؤرخ المحلي والمنظر الثاقبة يمكن استبعاد العلاقة بين ازدهار المدينة وعدالة السلطة، وضع يده بجراة يزيد نظريها حتى في يوما هذا على الحرج الذي عانبه ينزف وحلل مسبباته وبين نتائجه. فالنقيزي بالحقيقة في كتابه هذا رائد معرفي سابق للعديد من الأنواع التاريخية الاجتماعية التحليلية التي ظهرت في أوروبا القرن التاسع عشر وأمست من خلالها علوم إجتماعية مهمة كالاتريحي الاكنتسي والاتريحي العمراني والموسيولوجيا. (History of Civilization)

والفريق الأكثر شمولية والذي كان يعرف بتاريخ الحضارات... ولهذا السبب بشكل خاص تميز عن غيره من مؤرخى القاهرة من سابقه ولاحقيه من العصر المملوكي المتاخر وحتى القرن التاسع عشر، فلا السبب في كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة»، ولا ابن حامد القديسي (وليس ابن ظهيرة كما يظهر على غلاف الكتاب المطبوع) في "الفضائل الباهية في محاصر مصر والقاهرة"، يصل إلى مستوى المقرزي في استبعاد العلاقة بين العمران والمنح وال続き السياسية، بل إنهما كلاهما يعودان إلى الأسلوب التجريبي في معالجة الخطط على طريقة ابن عبد الظاهر وابن دمالة.

ولم يأت من تحديد الموقع الريادي للنقيزي كمؤرخ القاهرة الأهم والأعم حتى بداية القرن التاسع عشر عندما هبت ريح التغيير المعرفي على مصر على شكل نزول مجموعة من العلماء الفرنسيين مع حملة تابعون بونابرت الاستعمارية (1801-1802). وانكبوا بهم على دراسة كل ما يمكن دراسته عن مصر، تاريخياً، جغرافياً وطبيعاً واجتماعياً وعمرانياً وعمرانياً، دراسة وافية ومفصلة. ظهير نتائجه على شكل مجموعة الموسوعية الهائلة الحجم "وصف مصر"، التي ظهرت تباعاً في نيسان من عام 1903.

الفضائل الباهية في محاصر مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السفَق وكامل المهندس (القاهرة، دار الكتب، 1926)،


(*)IB نالت إشادة رئيسي أول من نبه إلى كون ابن حامد القديسي كتب كتاب الخطط المحتمل خطأ لابن ظهيرة،...
لهما الإدارات الكبيرة» كما يرى المقرزي ماضي دولتهم الزاهي من موقعه. هذا النظام الذي سمح لهم بإقامة هرم سلطوتي رايس وعند اتفاقه آثاره خلفاؤهم من بعدهم حتى عهد بقوه تضعفت أسمه خلال حياة المقرزي الذي كان شاهد عيان لما يحمله. وهذا النظام الذي أفرز ترابية محكمة لا يمكن فيه للفردية الملوك من الصعود إلى رتبة الإمرة فيه إلا بعد مرور مراحل تدريجية طفيفة وتبسيط واتخاذ الإمامة من الملالية، وصاحبهما في هذه الإمامة إذا تحدثت ودعت آباءه واتجاه تنظيم الإسلام وأهله بقلمه، واشنط ساعده في رمادية النشأة وحسن لعبه بالرحم ونعن على ركوب الخيل ومنهم في غير صائبة رتبة عرف أو ادّيب شاعر أو حاسب ماهر. قد زال وولى على حد رأي المقرزي. ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق (رخض للملاليين في سكنى القاهرة وفي النزوج فنذوا من الطبقية في القلعة ونحروا ناسا أهل المدينة ولحقوا إلى البطالة ونسوا العواطف ثم تلاشت أحوال في النازح بن برقوق… وبقي الجلب من الملالية إذا هو من الرجال الذين كانوا في بلالهم فما بين مسافرة وواد في تنور ومحول ماء في غط أشجار ومضى ذلك واستمر رأي الناظر (فرج بن برقوق) على أن تسليم الملالية للفقيه يتفق به يتركون وشونهم فبدلاً من الأرض غير الأرض وصارت الملالية السلطانية من أرجل الناس وأدناها وأخصهم قدرًا وأشرحت نفساً وأجاههم بامر الدنيا وأكثروا إهراعاً عن الدين مايفهم إلا من هو أزنى من قرد وأضن من فارصة وأفسدت من ذئب. فلا جرم أن خبرت أرض مصري والشام من حيث يصعب النيل إلى مجرى النهر بسوم إبالة الحكام وشهد عيب الوالدة وسوم تصرف أولي الأمر».3

هذا هو هجت القصد من نقد المقرزي اللاذع والمباشر: خروج السلطة المملوكية عن قواعد الحكم والعدل والشرعية أدى إلى خراب البلاد. ولا أظن أن أي وصف تقريبي لسواء الحكم كان يمكنه أن يبلغ من التأثير ما يبلغ وصف المقرزي للأثار العثمانية التي سيها هذا التدهور وهذا التحقيق الإداري والسياسي. وعلى هذا الأساس تبرز للمستحضة السياسية النقدية لكتاب (المؤامرة والاعتبار بذكر الخطب والآثار) فالموضوع والعبرة هنا ليست تجريدية أخلاقية محضة بل هي تقريبية وفاعلة: عمران الخطي لا يتم إلا بصلاح السلطة. ولا يوجد بما أن ننظر من المقرزي أن يذهب بعد مما ذهب إليه، كان يدعو لتغيير الحكم مثالاً. فلا تربيته ولأخفيته الإسلامية ولا محبيته...
ناصر المريزي

وهكذا نجد المقرفي يستعمل تيمنة (thème) في الخراب والخوف من النسيان والرغبة بتحفظ ذكرى الماضي السعيد ك➸الة ناظمة للعديد من فصول كتابه، فالأوقاف انتهت من قبل الأمراء الشرهين ودمر دورها الاقتصادي والعمراني بفعل الاستيلاء والاستبدال والبيع التعسفني، وهي كلها بدع آدخالها الجراكسة على حد زعم المقرفي. والكثير من خطط القاهرة الجديدة التي انتشرت في العهد المملوكي المبكر، وخاصة خلال فترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (حكم ثلاث فترات بين 1293-1341)، اضمنت وتراعت. وبعضها، كالمقص ومنشأة المهراني والدقة والخندق والرصد ويلبيس تولى إلى خرابات. ومستوى المعيلة تدهور وأوضعت أحوال الناس تتحول الأغنياء إلى ليس الجوخ الجريء، وإلى إزالة التكلفتي الفني الرائع من أوانهن المحاسنة لبيع الذهب والفضة صرفين فقراً ونبلاء، وزالت الأعياد الزاهية وذهبت بهمجها، فالغوانيس في ليلي المواسم لم تعد تعطي كما في الماضي، والزوارق التي تعمل اللاهين لم تعد تستعمل وتهب في النيل وفي البرك، وأسواق الرواف خفته. وفلك اهتزها شرهتهم لوضع يدهم على كل ما يطولهم من أموال الرغبة خلافاً أو حراماً، والفضية والأعيان مارد تعين بالرثوة. هذه الصور التي تبدو لنا اليوم مكركة بعض الشيء أعطت الكتاب إيقاعاً تشاؤمياً واضحًا بحيث لا يمكن للقارئ إلا وأن يحس به ويتأمل لائم المقرفي.

وهو يشاهد عياناً استنكر الحوار في مدينته...

ولكن المقرفي لاينكتفي بنقد السلطة من خلال التركيز على الخراب العرمني الحاصل بنتيجة فسادها وثجرها وسوء إدارتها وابتغائها عن تعاليم الدين كما حددها حماته من العلماء والفقهاء، بل إنه يعمد للنقد نقداً صريحاً من خلال نماذج واضحة من بين السلاطين أو الأمراء الكبار الذين تسبوا بشكل مباشر في الخراب العرمني أو التدهور الاقتصادي أو في فساد الدم وطغيان الأهواء. ثم يثبت خلاصة رآيه في تدهور السلطة المملوكية في فترة هي من أدق التحليلات السياسية التاريخية التي أعرفها - والتي يجاد بي أن ابتهاها كاملة - يستخدم فيها ببراعة فائقة نظرة معلمة ابن خلدون بعد أن كنيها للتلائم مع النظام المملوكي الخاص بصيغته الأصولية وطيبيته الحاكمة المكونة من جبل واحد لا يمر السلطة لأبناءه وإذما يضمنون مجموعة جديدة من الممالك لتحمل عصبيته وتخلد محله على قمة هرم السلطة.

فانظام المملوكي الصارم والدقيق الذي وضع قواعده الآباء المؤسسون مثل الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون مكنهم أن يصبحوا «سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل ساحة يبلغون في إظهار الجميل وبرعون من جار أو تعدد، وكانت...

ناصر المرياط

أنه جعل العمارة بأوادها ومبادئها العادية والعمران من احكار وخطوط وخارات واسواق وطرق وترع وخلجان مؤشرات على صحة المجتمع والدولة والثقافة التاريخية يمكن للدارس الفطن أن يقرأ فيما تاريخ مصر والقاهرة، وبالقياس غيرها من المدن. وهذا أيضاً سبق منهجي آخر في الثقافة العربية.

لا يخفى على قارئ اليوم ملاحظة مدى وعمق تعلق المقرزي بلبنده مصر ومدينته القاهرة، لا من خلال تخصصه كتاب "الخطف" للبحث في تاريخه العمراني فحسب، وإنما أيضاً من خلال النبرة التي يستمدها في الكلام عن مصر أو عن القاهرة أو عن أمك البلاد المفضلة في المدينة وخاصة حارته، حارة برجوان، خلال الكتاب كله.

ويظهر جبه لمصر أوضح ما يظهر في المقدمة التي تفتح بالمشاعر الجباية تجاهها كونها مستقر رأسه وملعب انتابه ومجمع ناسه ومعنى عشيرته وعونه خاصته وعماته وجوعها الذي ركب جناحه في وكره»، وهو بهذه المشاعر يظهر أكثر مايظهر وطنياً غبوراً قبل ظهور فكرة الوطنية نفسها وإن كان في سرده المسجع والسهل قد اختزل كل ما حاولت الوطنية الحديثة بعدد بارعة قرون إذ كاده في النصوط الوطنى من مفاهمه تهدف إلى

إثنانه لبلده وقومه وتجذيره في تاريخهما ولغتهما وانتصارهما وكيانهما.

وفي المقدمة أيضًا، يفصح المقرزي عن الهدف الأساسي الذي حدد إلى وضع هذا الكتاب الموسع: الخوف على ذكرى الخطط والمصانع والأوايدين الهامة في مدينته من الزوال بسبب التدهور الحاصل في عمرانها في الفترة العصبية والقلقة التي عاشها المقرزي نفسه، والتي تعددت فيها أسباب الانحطاط والتدهور. فهناك الصراعات والعنف الداخلي في بداية العهد الجركسي من الدولة المملوكية التي شهدت انقلاباً في نظام الحكم قاده المغامر الإمبراطوري بوقت الذي قضى على السلالة الفلازونية التي حكمت أكثر من قرون (1280-1362) والذي احتاج وقتاً وجهداً وسياسياً لتفشي حكمه والقبول به من مختلف قطاعات الدين الملكي.

وهناك الآثار الرهيبة لطاعون "الموت الأسود" الخطاف والهائل الذي ضرب حوض البحر الأبيض المتوسط بين عامي 1448-1452 وحصد أكثر من ثلثيّ مجموع السكان في تلك البلاد. وغير معادلات النمو والاقتصاد فيها والتي لم تستطع الدولة المملوكية على خلاف الدول الأوروبية التي أصيبت به أيضاً - النهوض من كبوتها بعده. وهناك الغزو البيزنطي العناصر والكامل في بداية القرن الخامس عشر الذي دمر الاقتصاد السوري، رديف اقتصاد مصر، وقضي

42
عن تاريخ مصر والقاهرة، ولد أنه لم يكن دائماً دقيقاً في تطبيقه أو ناجحاً في فهمه للبعد المنطقي للنظرية الخفوتية. على العموم، يظهر أن المقرئي قد تمكن من تطوير النظرية التي يقدم حلقة متوارثة بين الأرتيقية والانحدار في نمو القاهرة العمرانية ولكي ينتمي من خلالها قدر المدينة في ظل السلاسل المعاقثة على حكمها في الحقب الإسلامية ابتداء بالطولانيين الإخشيديين فالظاهرية فاء يوبيين للملائك البحرية ثم البرجية. وقد استعمل المقرئي وضع المدينة المعماري والاقتصادي والسكاني والعمري كنوع لوضع السلطة في هذه الحقبة المتوازية بشكل يذكر براي ابن خلدون في النهاية على ما يبدو لي لإدامة كمالية تدهور الأوضاع تدهوراً لا تمثل بقيام بعده في عهده هو وعلى يد المماليك البرجية، وإن كان يبدو لمنشأهما أكثر من المتاه.

هذا العالم والمؤرخ الملموسة والحساس كان، كما يخبرنا تلميذة المؤرخ ابن تغرير بردي، مبعداً في الدولة، ليدنوه السلطان مع حسن محاضرته وحلو نامامته. وما أن السلاطين بعد الظاهر بوقوع الذي كان حاميه وسميره، خاصة فرج ابن برقوق في آخر عهده ولكن أيضاً الموقف بشيف وبرساي، «ابعدوا من غير إحسان» على حد رأي ابن تغرير بردي أيضاً فقد أخذ هو في ضبط ممارساتهم وانتقاد سياساتهم نقداً وتفقفاً، على أنه كان «ثقة في نفسه، ديناً، خيرة. وقد قبل لبعض الشعراء إلى متى تمد وتهجو، فقولاً: مدام الحسن يحسن والمسيبي بى، وهذا هو في الحقيقة لسان حل المقرئي الذي يمكن، يحكم إبعاد عن الدولة، من الجهر في كتاباته بما لم يلبه غيره خلقية حفاظاً على المنصب والصلة، ومن تبع اختفاء ونفاق وفساد الحكم في زمانه. وحاول في ضمن معطيات علمه وعقليته تحليل مظاهر الفساد ونبيتات نتائجها في تدهور الإقتصاد المملؤي وزيف العملة وتفسح المجتمع وفي الحراب الذي حا急 بسرعان مصر والقاهرة بشكل خاص. وهو قد اتخذ منهجاً جديداً للولوج إلى متجهات النقد، أي المدخل العمراني، وتطرق إلى نقد الدولة والمجتمع والأقتصاد والسياسة والثقافة وبعض العادات والتقاليد من خلال تبع آثارها العمرانية المعمارية. أي

راجع، راجع ابن تغرير بردي، الحجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 15 مارس (القاهرة، 1930-1931)، 14: 120.

سما مقدمته التي لم يعمل مثالها، وإن لهزيمة أن ينال مجده من عالمها، إذ هي زيادة
المعرف والعلوم، ونتيجة العقول السليمة والفهم، توقف على كنه الأشياء، وتفاصل
حقيقة الحواض والآباء، كمأمتا تعب عن حال الوجود وتبني عن أصل كل موجود،
بلغت أبهى من القدر النظيمي وأخذى من الماء مرسى السنيم.14 ولأني نفهم ابن
خلدون عن العماران قد أثر تأثيرًا كبيرًا في فكر المقرزي، وفي تحليله تاريخ القاهرة
في خططه، ولأن المقرزي برأي قد فاق في عمق وإحاطة تطبيقه للنظريات الخليدية
حتى مصلحة ابن خلدون، الذي إن كان أطول منه بأيًا في التفكير والتحليل النظري.
بل وأطول بأيًا من العديد من تابعيه حتى اليومه هذا - فهو قد حصر تحليله في
الماما المقاقي، ولم يسمح لنفسه بتخطيط نظرياته النقدية الجرية على الحاضر المغاربي
أو المملوكي اللذين عاشهما كليهما (مع بعض الاستثناءات المديدة والذكية).10
ولذا كانت القرمزية واضحة لهذا الاحجام عن النقد مادة دهما، وسياسة ابن خلدون
ورغبية الواضحة في الإبقاء على كل قنوات الشروط بولة مفتوحة، حتى مع
تيمورلنك الغازي الرهيب نفسه الذي سايره ابن خلدون لأثر عديدة في ضواحي
دمشق عام 1400، بل وقيل أن يكتب له تذكرة بناجية وغيرها الغرب مع إدراكه
أن هذين تيمورلنك من ذلك هو النهوض لغزو الغرب.16
وانظرة الخليدية عن تتابع أطر العماران وأخبار بسبب حضور صعود وهب
الدول في التاريخ تبدو كالعقد الأظلم لبعض كتب المقرزي، خاصة كتب "إغاثة الأمة
بكتش الغمة"، وفي بحث الصغير "النزاع والختام فيما بين بين آمنة وبين هاشم"،
وبصورة أوضح في كتاب "الخليط".17 فهو في هذا الأخير يستخدم الإطار التحليلي
لنظريات الخليدية في ترتيب وتنسيق وتقدم الكتب الهائل من المعلومات التي جمعها

14 راجع محمد بن نايس رابط، "التعريف بأعمال ابن خلدون ورحلته
"بغيا وشراقا (القاهرة: جمعية النايف والترجمة والنشر، 1951)؛
Walter J. Fischel, Ibn Khaldun and Tannerlane: their Historic
Meeting in Damascus, 1401 a.d. (803 a.h.) A Study Based on
Arabic Manuscripts of Ibn Khaldun’s «Autobiography»,
(Berkeley: University of California Press, 1952)؛ 'Abd
al-Rahman Ibn Khaldun, Le Voyage d’Occident et d’Orient,

16 راجع تأريخ الطويلة والمتقنة في المديح لأبن خلدون التي
أثبته المقرزي في دربه والتي تشر في محمد الخليج عن
مخططة كاملة لكتاب بيد خلدون ولم تتم حتى اليوم،
"ترجمة ابن خلدون للمقرزي"، مجلة الجمع العلمي

17 راجع تحليل دافيد آيلان تأريخ ابن خلدون في المقابل في:
David Ayalon, «Mamlukiyyat: A First Attempt to
Evaluate the Mamluk Military System. (B) Ibn Khaldun’s
View of the Mamluk Phenomenon», Jerusalem Studies
in Arabic and Islam 2 (1980): 321-339 (reprinted in
Outsiders in the Lands of Islam: Mamluks, Mongols and
الدوم بكتابه المركزي، وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الذي أخذ من جهده أكثر من أي من مؤلفاته الأخرى ومات دون أن يكمله كما أراد وأشتهى، فهو على ما يبدو من خلال التواريخ التي تظهر ضمن الكتاب ما قيل وأينتح فيه منذ بداية تأليفه حوالي العام 1415 وحتى ستين قبل وفاته (1440)، بل حتى يظهر أنه عدل في مخططه الأساسي ومنهجه مع مرور الزمن وترامك المواد الأولية لديه من جهة، وتعبر رأيه بأن النظام الملكي القائم من جهة أخرى، كما يظهر ذلك واضحًا من مقارنة المسودة التي نشرها آن ثُم فؤاد سيد مؤخرًا والتي تمت كتابتها بين 1415 و1420 على رأي ناشرها، مع المبيضة المشورنة والتي تعود افتراضًا إلى آخر تنقيح وإضافة أجراهما المقرزي على الكتاب قبل وفاته وإن كان مازال غير كامل وفقًا لما وعد المقرزي به نفسه في ديباجة الكتاب. ولا يقتصر النقش على جزء أو اثنين من المحتوى الأصلي، خاصة القسم الأخير الذي كان يفترض أن يحلل أسباب الحصار في مصر، بل ينعدع ليشمل بقاء عدد كبير من الأقسام ناقصًا أو مخلوع العبارة، ولإحيانات مشوّشة بعض الأخطاء اللغوية. ومع ذلك فهذه المبيضة التي وصلتنا ونشرت في بولاق عام 1854 أقرب ما يكون إلى الأتمام حيث فينا إذا ماضينا صفحاً من الأخطاء غير المصورة لمكننا أن نعمدها معيارًا لفكر المقرزي التقديمي وعلاقته في قراءة التاريخ العمراني لمدينته وبلده الذي تأثر تأثرًا واضحًا بنظرية أستاذها العظيم ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون الشهير على العمران.

فالمقرزي كان يلمدأ لابن خلدون ومصاحبًا له خلال السنين الطويلة التي قضاهما هذا الفكر الأصلي في السلطة المملوكية و تغلب خلالها في مناصب القضاء والتدريس في آخر مدارسها في القاهرة ودمشق منذ وفوده على السلطان الظاهر برقوق في القاهرة (ذي القعدة 784/يناير-فبراير 1383) وحتى وفاته في 27 رمضان 18/8 مارس 1406. وهو، أي المقرزي، يكن معلمه أشد الاحترام ويعتبره بكل صفات التقدير والتبجيل، وينسب له عددًا كبيرًا من الأحاديث التي بيعت في تضاعيف كتبه والتي تعود لتواريخ مختلفة تغطي أكثر من عشر سنوات مما يؤكد طول الصحبة بين الرجلين. ولا يخفيف المقرزي إعجابه بعمق تفكير معلمه خاصة في كتاب "العبر" وفي مقدمته التي يقول عنها "والف كتاب الوصف البديع الصفة المشمو عنوان البربر وديوان المبتدا والأخير في تاريخ العرب والبربر [4] وهو لعمري نادرة عجيبة ودورة بديعة غريبة،

12 المقرزي، درر العقود الفردية، 2: 115-122، 143: 163، 1493

Anisl 35 (2001), p. 77-100  Nāṣir Al-Rabbāṭ
© IFAO 2023  Powered by TCPDF (www.tcpdf.org)
Anisl en ligne https://www.ifao.egnet.net
ناصر المريض

لا فيهما ندر. ولم يغادر القاهرة إلا مرتين على الغالب في أواخر حياته للحج واستراحة في مكة إماً للفوضم ذويه وانكاساً لستطيعات زهده المنتمي. ولعل القضاء الفني التي قسمت ظهر الغزالة وجهت المفتي إلى التنسيق والتحقيق بالعوازل إلى التنسيق، كانت مقتل صديقه وحاميه كابوس السم الحذف بين نسب الميهمين الإسرائيلي الداعم للسري المبتلين على يد السلطان المؤيد شيخ بعد سنة أشهر (يناير-يونيو 1413) قضاها في الترسخ وحبت التعذيب مع أنه كان المسنح الرئيسي لوصول المؤيد شيخ إلى السلطنة عبر سلسلة من المراوح المحكمة التي مكنته من تجديد أو إزالة كل منافسي السلطان من أمراء وكبار

وقد قضى المفتي النصف الثاني من حياته (من 1412 إلى 1442) في عزلة نسبية بعيداً عن مواقع السلطنة ومسيرتها من سلاطين وأمراء وكتاب ووزراء. وكتب وصنف مجموعة من كتب الأخبار عن السلالات التي حكمت مصر الإسلامية وعن أهم رجالاتها، مجموعة سبيعة، ابتداها بكتاب صغير عن دخول العرب إلى مصر وترتيب قبائهم سما: "البيان والاعراب عن دخول مصر من الأعراب"، أتبعه بكتاب عن عاصمة مصر الإسلامية الأولى تحت عنوان، "عقد جواهر الاستفاء في تاريخ مدينة القاهرة"، وهو للاست معقد اليوم، ثم كتابه المهم عن الفاطميين، "إنجاز الحفري بالاحترام الاقتباسين الخلفاء"، المتعاطف مع هذه السلالة الحاكمة التي أدانتها العقلية السنية السائدة والذي يصفح عنوانه ومضمونه عن ميول المفتي للفاطميين الذين كان يعتقد أنه من سلالتهم، وفي النهاية كتابه الكبير والمهم "السلوك لمعرفة دول الملك"، الذي يعرض فيه حاولته العهدن الأبوبي والملموكي بما فيها مشاهدات شخصية حتى قليل وفاته. ويبدو أن المفتي قد اتبع الترتيب الزمني في تأليف هذه الكتب مع أنه شغل نفسه خلال نفس الفترة بجمع كتبات صغيرة عن مواضيع مختلفة، أغلبها تاريخي أو تراجم (مجموعة 19 كتابًا منها 12 منشورًا وفقًا للعلماني) وبكتاب التراجم الكبير، المفتي الكبير، الذي آراده على مايدار جامعاً وحاولًا لتراجم كل من سكن مصر أو زارها أو مر بها من الشخصيات المهمة، ولكنه توفي قبل أن يتمكن من إتمامه. وخلال هذه الفترة الطويلة كلما كان المفتي مشغولاً على

11 المقريزي، السلاطين لعرفة دول الملك، 4/4، 1242/1924، 252، 256، 259، وضع بالتفصيل مغاملة صاحبة فتح الله قبل مقتله في سجن بن أمر من السلطان المؤيد، ثم تبع في 4، 22، 123، 123، كتب يضيف ميما وتجارات فتح الله بعد ثلاثين سنة على مقتله.

88
نادي حاصيلة ضمن من المعاناة من الصراعات المذهبة (أي بين أتباع المذاهب السنية.alibaba) والسياسية والمتفقية والتكالب على المنصب والفساد والرشاوي التي أعادها المقرزي عن قرب من خلال اتصاله بالسلطان برقوق وأبي فرج وبيكار رجال دولتهم، ومن بعد، ثم بالسلطان المؤيد شيخ الذي اُدان في بداية حكمه ثم أبعد منه عن غير ما سبب واضح، ومن خلال المنصب التي شغلها خلال تلك الفترة وعلى رأسها وظيفة حسنية القاهرة التي احتلها ثلاث مرات (مارس-أغسطس 1399، يناير-أبريل 1400، مايو-أبريل 1405) والتي اتاحت له الفرصة لكي يشاهد عينيه السلام الذي كان ينخر في بيئة المملكة والأعمال والأعمال التي استشرى في مختلف طبقات المجتمع من عامة وحكام. وقد شهدت مجموعة الحسمة قريحة المقرزي وأمتدت بث-chatرة اللازمة والمعلومات الوفيرة التي استعملها في تأليف كتبه المهمين: الأول، إجازة الأمة بكشف الغمة، عن السياسة الاقتصادية التي واجهت المجتمع المملوك في بداية القرن الخامس عشر، والثاني، "شذور العقود بذكر النقود"، عن السياسة النقدية للدولة المملوكية، ليأتي من بعدهما كتابه الفريد من الخصائص وشيالاً في معلوماته العمرانية والاقتصادية والتاريخية.19

ومنذ ظهر أول عصر القرف على هذا العالم الشديد البناء وتبقي، فإن كان صعبًا
الشخصية نوعًا ما، عندما كان بصحبة السلطان فرج بن برقوق وحاشيته في دمشق بين 1407 و1412. فقد عرض السلطان عليه قضاها مرارة وهو يرفض ولو أنه باشر بعضًا من الوظائف الصغيرة من تدريس وإدارة وفق.20 وبعد مقتل فرج وانتقال السلطة إلى السلطان المؤيد شيخ عام 1412 عاً المقرزي إلى القاهرة من دمشق وأعرض عن الوظائف وانتقل في داره عاكفاً على الخلوة والعبادة والتاليك، وتوقف عن التزام لاحق


19 المقرزي، درر العقود الفريدة، 4: 102، حيث يورد تاريخ دخوله دمشق وإنهاءه فيها براجع أيضاً المساوي، أبو اللام، 2: 13، والمقرزي، السلك لمعرفة دول الموارد، 4:1: 84-83، حيث يعدد الوظائف التي شغلها في دمشق.

© IFAO 2023
Anisl en ligne https://www.ifao.egnet.net
خطط المقرزي بين التدوين والتذكر والندق

ومع ذلك، وعلى الرغم من انتقادات السخاوي والعيني وتلميذه الجوهر الصيرفي الجارحة واللاذعة فقد استحوذ كتاب المقرزي على اهتمام معاصره وتتابعه بدليل العدد الكبير من مخطوطات الكتب المنتشرة في مكتبات العالم (أكثر من 170 مخطوطة وفقاً لأيمن فؤاد سيد منها 25 مخطوطة في استنبول وحدها)، ودليل العديد من الكتب اللاحقة التي اقتبست منه يو أعادت مخطوطة كتابه وأكملته أو بنت على متناوله حتى اليوم الحاضر على الرغم من تعبير المقاييس وتطور النظريات واختلاف الآراء والمشاريع. وللهذه الشعبية واستمرارية الأهمية أسباب عديدة تتجاوز سعة وتفصيلية موارد الكتاب لتشمل معالم أساسية في توجهه وهدفه ونشره وشموليته الموضوعية والتحليلية وخلفية كاتبه الاجتماعية والشخصية والدينية التصوفية. فكتاب "المواضع والاعتباط" في الحقيقة يخرج من دائرة التدوين والتذكرة التي طبعت غالبية أدبيات الفترة بطبع الجدوم والتكرار، لك يقرب قارئه أكثر من فكر وعاطفة وهموم كاتبه ويجعله يlausih ويعاطف معها، أو على أقل تقدير يتفاعل معها بطريقة أو أخرى حسب ثقافته وخلفيته وسماة ومحبيته.

ولعل أكثر ما يقرب المقرزي إلى القارئ، المعاصر هو أن كتابه يصب بنهاية الأمر في خانت الدراسات النقدية الإصلاحية ذات النفس الحي والمتأمل والفكراني التي قل ما نجد مثلها في التراث الفروسيطي برمته. فالمقرزي الذي ابتعد حيآته المهنية على نفس المنحنى المعتاد عند معظم العلماء الفروسيطيين من التلميذ لكيبار علماء عصره والاستفادة من اتصالات عائلته وسعي لبني الحظيرة عند الأمراء وأصحاب الشاه، واذ يقيد شرطاً طويلاً من فوتته وهو يجادل في كواليسه للوصول إلى منصب برضاء نجده فجأة ومن دون سبب واضح يقرر الكف عن التذكرة للأكارب وينعزز في بيئة العائلة في حارة برجوان في قلب قاهرة المزع، وهو في عز الشباب وفترة النشاط وينصرف للطاعة والكتابة والعبادات التي قارب التصفية، ولنادري سيماً تماشيًا لهذا القرار، وإن كان عن التذكرة للأكارب إذا كان فعلًا صادقًا في زهدته. راجع "كل تحرفي المقرزي متفنون على أنه اعتزل الناصب كما قبل العام 1420 ولكنهم لا يكدونون إسراً كافياً لهذا الاعتزال. المقرزي نفسه ببغي في تضاعيف كتاب التراجع الصغير: درر العقود الفريد، لوحذاً زده في الحياة العامة الفاسدة ورغبته بالإستدارة عن الناصب، راجع مثلاً 1421: 100 2023 حيث بود المقرزي نفسه محاولة إتباع صدق له بالإستقلال من الناصب، وهو في بعيد. ناصر الرياط

© IFAO 2023

Anisl 35 (2001), p. 77-100 Nāṣir Al-Rabbāt
-Al i'drā-al hu-kitābu wa Maqrīzī-Al: sulṭa-al wa tārīḫ-al wa madīna-Al mawā'īẓ wa al-iʿtibār bi-ḏikr al-ḫiṭaṭ wa al-āṯār».

© IFAO 2023

Anisl en ligne
https://www.ifao.egnet.net
فقد بين بعض الباحثين المحدثين أن أكثر من ثلثي كتاب المقرئي يعالج أحياناً ومواداً تعود لما بعد 1508 أي بعد وفاة الأوحدي نفسه مما يشكي عن المقرئي تهمة التبعية المواعظ الكاملة 16. ويتبعنا بعد ذلك نفس النقيدي الفردوي الواضح في تضاعيف كتاب المواعظ والاعتبار والوحدة المنهجية والتربيبة التي وإن كانت غير مكتملة فهي واضحة في كل جزء من الكتاب، مما يؤكد بأن المقرئي لم يفعل أكثر من أنه أخذ مواد الأوحدي وساعده بلغته ونقطة موضعه كمواد أولية، كما فعل كل كتاب فرثه، وكما يفعل أي مؤلف اليوم 17. وله الاعتراض الاهم على المقرئي، والذي لا يمكن تبريره إلا بذكر المانعه الشديدة بين علماء ذلك العصر المحدودين في بيئة ضيقة، وهو أنه لم ينسب للأوحدي أي مادة في كتابه ولم يذكر له بعض السبق في تجميع بعض المواد التي استعملها في نفسه على الرغم من أنه قد أقر بعضه كل من عداد من السابقين له. وهو قد فعل شيء نفسه مع معاصره الآخر ابن دفمار، الذي كان أيضاً من معاوره وأصدقائه، مما يؤكد صحة الفرضية بأن المانعه بين هؤلاء المؤرخين المعاصرين ربما كانت السبب الاهم وراء إتكار المقرئي لفضل كتابهم على مواده وكتابه 18.

16. راجع مثل المقرئي، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، مقدمة ابن فؤاد سيد 1573-77.
17. عن أسوب النقل والاستثمار في الكتب العربية.

المقرئي، درر العقود الفريدة في تراجع الأعمال المقدّمة، طبعة درويش ومصري، ترجمة ابن دفمار، ص 117-118. وطول المقرئي في ص 118 أن ابن دفمار كان ينقل منه هو وبين نفسه، ولكن ابن فاضي شهيرة الذي راجع مخطوطات المقرئي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، أي بعد وفاة الكاتبين، يعتقد سلباً على ادعاء المقرئي في حاشية المخطوطة. وقد اقترح آخرون فؤاد سيد في مقدمة كتاب المقرئي، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، ص 118-22، أن سبب عدم نقل المقرئي عن ابن دفمار راجع لكون كتاب «الانصاف» لطبيب مخطوطة واحدة من فقط كانت قد حظيت كوفق في مسجد بصرى في القاهرة منذ كتابتها في بداية القرن الخامس عشر وحتى اكتشافها في نهاية القرن السابع عشر، على عكس مخطوطات المقرئي المنشورة. وما يرجع صحة تأويل ابن دفمار سيد هو أن المقرئي نفسه في ترجمته لأبي دفمار في: درر العقود الفريدة، ص 119، يبرر أنه أخذ عن ابن دفمار روابط شهيرة فقط وأناهها في خطبه، وهو لا يذكر كتابة ابن دفمار مطلقًا.
وأيضاً عندما يصل المرء إلى كتاب المقرئي في النصف الأول من القرن الخامس عشر
الميلادي يجد نفسه إزاء نقل معرفية وتقنية و نوعية محضوية. والحقيقة أنه أهمية هذا
الكتاب الهائل الحجم - جزء من القطب الكبير، كان لنا ارتقاء أكثر من خمسة آلاف صفحة.
- لانقتصر على حفظه للمعلومات المعمارية والإيمانية والتاريخية عن عروبة
القاهرة، وغيرها من المدن والقرى والدكاكين المصرية، وإن بدرجة أقلي، والتي لولاها لنا
فقدناها بفقدانها لمصدارها الذي استمر منها، أو على ترتيب تلك المعلومات وصلتها
وأمل الشوارع فيها والزيادة عليها، بل إنها تصب في خانة روح الكتاب ودواقع كاتبه.
التي لا تقدم إيجابياً منفصلاً ومعاطعاً وموضوعاً في نفوس العديد من معاصره وتابعناه
في مصر وخارجها. هذا على الرغم من الإشكالية التي طرحها اتهام المؤرخ النافذ
واللاعج الهجاء عبد الرحمن السحإحي لسنتها المقرئي بسرعة كتاب عن الخلاط
من تأليف جاره أحمد بن الحسن الأولي (1368-1410) وانتحاله لنفسه. وهو
تم السحاؤ في هذا قد وضح الموضوعة وتجاهل ما آسفة المقرئي نفسه في ترجمته
لصيغة وواجهة الأولي في كتابه "در الأقوال الفرصة في تراجع الأعيان المفيدة،
من أنه ضم مسودة كتاب الأولي في الخطط التي وقعت له بعد وفاة مؤلفه إلى
كتابه 13. ومع أن بعض معاصر المقرئي كانت لهم آراء سلبية فيه أيضاً إلا أن أي
منهم لم يكرر اتهام السحإحي بالخادمة نفسها مع أن معظمهم قد اطلع على كتاب
السحإحي. حتى القاضي بدر الدين العيني نفسه، وهو عدو المقرئي اللدود ومنافسه
الأوْل على الوظائف في الدولة، والذي لم يجد أي شيء إيجابي يشبه في ترجمته
المقرئي لابتهله بالسرقة وإن كان يذكر له اتهامًا آخر "الكيلي المغيبات والضرب
بالرمل"، ولو أنها واضحة المغزى والهدف على ضوء الصراع المرير بينهما في البلاط
المعلمي، وفي استجلاب الخطة عند كبار الأمراء. 14

من دون أي تبري، الأولى لجزئ بحق تحقيق محمد كامل
المدني عن الدين، المقرئي وكتبه: در الأقوال الفرصة في
ترجمة الأعيان المفيدة (بيروت: عالم الكتاب، 1992)،
والثانية بجزئ بحق تحقيق درويش وعبري ( دمشق: 
وزارة الثقافة، 1995). عن ترجمة المقرئي لـ "الواحد راجع
حجة درويش وعبري: 1: 252-261.

14 راجع ترجمة المقرئي في كتاب "در الدين العيني، عقد
الجناح في تاريخ الهجرة، المشرفة على مختارات عبد
الزغر الطيطاوي،づくりمة القاهرة: الزهراء لإعادة العربية،
(القاهرة)، 1989، ص: 28، 574.

13 فورت السحإحي اتهامه أكثر من مرة، الأولى في كتابه:
الصحا الناجح: الأقوال الفرصة في تراجع الأعيان المفيدة، وكتب:،
والثانية: "كتبت النسب في سبيل النبؤة (القاهرة: مكتبة
الكتب الأثرية، 1891)، ص: 24-25، 110-2، 150-2،
وكذلك: "عند علم التاريخ من دروشي: مكتبة
العهد، 1930، 131. أما عن كتاب: در الأقوال
فرصة في تراجع الأعيان المفيدة، فهو متوفر في طبعتين
من المكتبة المصرية، نشرته على 300 ترجمة
من الهجرة الجديدة: غدامس، (لا يحتوي على
655-655، 300 ترجمة)، محظوة في مكتبة غدامس
(مخطوطة 270، عربية) نشرتها خلال ثلاث سنوات بينهما.

82
أثبتت فيها كتاب لاحقة، خاصة كتاب المقرزي نفسه. من أشهر هذه الكتب على رأي المقرزي أيضاً كتاب ابن زوالق (1196-1969) "خطط مصر"، وكتاب القضاعي (توفي 192) "اختيار في ذكر الخط وآثاث"، وكتاب محمد بن أسد الجواني (توفي 1911) "كتاب النقطة بعجم ما أتى من الخطوط".

ماوصلنا كله أو بعضه في نهاية الأمر من كتاب الخطوط المكتوبة قبل كتاب المقرزي: الأول هو كتاب محي الدين بن عبد الظاهر، "الروضة النهية في خطوط القاهرة المعزية"، الذي جمعه بين 1826 و1853، والذي اكتشف وحقق مؤخراً، وكتب ابن دقماق، "الاتصال لوساطة عقد الأمصار"، الذي جمعه بين 1891 و1903، والذي اكتشف منه الجزء الرابع والخامس وحلفقاً في نهاية القرن التاسع عشر.

كتاب ابن الظاهر، "كتاب السر على عهود كل من السلاطين والملوك والقوارون والآثاث خليل"، كتب صغير لطيف، يبدو أنه ارتى من تأليفه ان يجمع كل المواد المتعلقة بالقاهرة المعزية أو القاهرة الفاطمية التي كانت معاهد الهدايا والهدايا وتقلب الأحوال قد بدأت تغييرها منذ العهد الأموي، كما يقول ابن عبد الظاهر نفسه في مقدمة كتابه. وربما كان لتسارع التغيير في فترة خدمة ابن عبد الظاهر، عندما كان السلاطين والأمراء المماليك مهتمين في بناء المدارس والقباب الفخمة في قلب القاهرة الفاطمية مكان البصر والدوار الخليفة. الدور الأهم في إعرابه إلى تأليفه. وعلي نهجه يظهر كتاب ابن عبد الظاهر "محاولة للتذكير وحفظ الصورة" وإن كانت المحاولة لانخرا من اهتمام بروقراطي وناريكي بتسجيل المواقع القديمة، كما تكلف من السلطان ببرس نفسه. أما الكتاب الثاني، "الاتصال" لابن دقماق، فلم يصلنا منه مع الأسف سوى حالي مثله، ولكن ما وصلنا كاف لإعثاءه فكرة عن محتوى ومنهج الكتاب الذي لم يرد عن كونه تجميع سري من تصوير وسرير خطوط الفسطاط، ربما كانت تتمت على خطوط القاهرة وإن كان أمين فؤاد سيد يرجع أن الكتاب ركز بشكل رئيسي على الفسطاط.

۱۱ محي الدين بن عبد الظاهر، الروضة النهية في خطوط القاهرة المعزية، تحقيق أمين فؤاد سيد، (الدار العربية للكتاب، 1996)، ابن دقماق، الاتصال لوساطة عقدperms (بولاق، 1883).
۱۷ إبراهيم المقرزي، مسورة كتاب المواقع والأثاث، (الدار العربية للكتاب، 1992)، سيد أمين فؤاد، ص ۸۱-۸۲ من أجل مقدمة كتاب ابن دقماق.
۱۳ تقدم لنا المقرزي نفسه جزءاً غالباً كتب الخطوط السابقة لكتب وإن كان يهيئ بعضها لأساس جذري ببحث في مجال آخر. راجع (نوفل-القربي، المواقع والآثاث بذكر الخط والآثاث، جزء من (بولاق، 1854)، ص 4-17، 5-15، راجع أيضاً، (أحمد بن اسحاق، "المسلمة الإسلامية، تاريخ الخرطوم", ص 191-273 وذكال القربي، مسورة كتاب المواقع والأثاث، مقدمة أمين فؤاد سيد، ص ۲۰۶-۲۰۷.)
ناصر المرياط

في التاريخ الإسلامي القروسطي، فإن كان ابن شداد على ما يبدو مجدداً فكرياً ومعلوماتياً أكثر منه صاحب نظرة أو منهج جديد، ولكن مع ذلك يمثل حلقة وصل بين الكتب الشاملة الجامعة في الجغرافيا أو المسالك والملعال، والكتب المتخصصة بمدينة واحدة أو نبض واحد، ككتب الخط.

تأتي الآن إلى كتاب "الخطوط" نفسه، التي على ما بيننا استعراض الكثير من التقاليد السابقة عليها من كتب المدن والفضائل والمسالك والملعال، ولكنها طوعت هذه الاستعراضات لгинائم أهدافها وأتجاهاتها وحدودها المعرفية والأيديولوجية والمنهجية. لم تهتم كتب الخطوط بالأنشطة البلدانية والجغرافية وآخرواً، بل ركز بشكل أساسي وحاسم على الأديب والخطاط والتنشيط المدنى والمصري. وقد حددت كتب الخطوط من اهتمامها فنزلت بتمورها من مستوى كوني أو إسلامي على أعلى تقدير إلى منظر قتري. أما تاريخاً، فقد ظهرت كتب الخطوط بشكل أساسي في مصر بعد العهد الإسلامي، بل لعل مصطلح الخطوط لا ينطبق على أي تقليد أديب في أي بلد إسلامي آخر. ولم يردنا أن أي قطر إسلامي آخر قد شهد أي تمثيل لهذا النوع الأديب وإن كانت هناك بعض الكتب التي يمكن وصفها بكتب الخطوط من أقطار أخرى، ولكنها لا ترقى في مجموعها إلى مستوى التقليد الفكري المتصل من القرن الثالث هجري/الصامت المباديّ وحتى القرن السابع عشر أو بعده الذي تلاحظه في مصر. ولذا أسباب مختلفة يمكن إجمالها بقوة الحس الوطني والقومي المبكر والمفعّل في مشاعر أبناء مصر وتربتها وكتاباتهم قبل ظهور الشعور الوطني والقومي كجاوهرهما اليوم، على أساس نظرية الفكر المصري الراحل جمال حمدان عن شخصية مصر المتقدمة. وقد وجدت هذه المشاعر متنفسها في كتب الخطوط التي تمت بشكل خاص بعد تأسيس الخلافة الفاطمية في مصر واستقلالها عن بغداد بل وتنافسها معها على صعود الشعور الإسلامية وإيحائها للشعور المصري بالتعريف والخصوصية والأهمية. هذا على الأقل هو الراي السائد عن كتب الخطوط التي ظهرت في تلك الفترة، والتي فقدت كلها بحيث أتانا لانعرف عنها سوى ما


82

© IFAO 2023
Anisl en ligne https://www.ifao.egnet.net
خطط كتفيقدي أدبي فروسطي

في الحقيقة، يمكن اعتبار المقريري في كتابه هذا سلسلة منقوطةً ومثالاً لكتفيقدي أدبي عربي وإسلامي متواصل وإن كانت فروعه مختلفة واحياناً متغايرة في خلفيتها وانحيازاً الفكري والمنهجي. وأمثل كتاب المقريري ذرة فكرية في فرع الخصى الذي اكتسب اسم "الخطاب" (من خطة "أي الموقع السكري الخاص بجماعة محدودة ضمن حيز المدينة الإسلامية"), ذلك النوع المتخصص من الكتاتيب المدينة المنورة والطائفية والتهذيبية الذي يعود بجذوره العلمية والفكرية إلى تباعات عدة في الأدب العربي، ظهرت كلها مع بدايات الإسلام وتطورت لاسيماً في مختلف معابدة دينية وإدارية وتنظيمية وأحياناً مستشفى، وأحياناً للجهة. سلسلة الأنواع الأدبية هذه تبدأ مع نوعين اتقانيين اصولهما من ضروب المجتمع الإسلامي المشكل عندما اندمج المسلمين الأوائل من ديارهم لكي يختاروا بحضارات البلاد المفتوحة ويتخذوا منها في عملية صد وجبة استخدامه، امتدت إلى زيادة وعي المسلم يغرس خصوصيتهم التاريخية وتسبعهم لأداب الإنتاج الثقافي التي طورتها الشعوب المفتوحة قبل وبعد الفتح الإسلامي في آن واحد. هذا النوع العاثوان ما كتبه الفضلائل, التي ركّبت على المميزات الدينية والقديسية للمدن الإسلامية وُضِعِت في كلية المدن القدسة, مكة والمدينة والقدس, والتي ازدادت أهميتها اثت الحروب الصلبية وتنامي الوعي بالأهمية المدنية الإسلامية خاصة في القدس، وكتب التراجم المخصصة بالمدن التي حفظ مؤلفوها من خلالها تراجم علماء ومحدثي كل مدينة كبيرة، والتي بلغت درونها مع كتبي "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي (1031-1176) و"تاريخ مدينة دمشق" لأبان عساكر (1105-1176). هذه العملان الموسيقى شكلاً موهباً لفنونهما الأدبي. وقد اتباع كلاهما نفس المنهج والخطة، إذ ابتدأ كلاً منها بوصف محضر للمدينة وتاريخها في الإسلام، لم يتجاوز في طوله ربع مجلد من أصل 14 مجلداً لـ"تاريخ بغداد" و11 مجلداً "تاريخ دمشق" لتتسع سلسلة تراجم العلماء والمحدثين والفقهاء الذين عاشوا في كلا المدنين أو درسوا فيها أو أقاموا بها أو وجدوا العلم فيهجاً.

أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 57/1176، (دامس: Ifeed، 1959).

المدينة والدولة والسلطة: المقريري وكتابه الهادث "المركز إلى الأطراف بذكر الخطاب والآثار". 1980. من أجل مناقشة الكتبة، ومن أجل تجربة ملموسة.
ناصر الرياط

وبداية القرن السادس عشر حتى ما بعد الفتح العثماني وفيها انحصرت جل اهتمامات المؤرخين بالعثماني والآتى. فعلى عكس أعلام مؤرخ القرن الرابع عشر من أمثال البوئي والعرمي في مصر والذهبى وابن كثير في الشام الذين غنتهم اهتماماتهم العالم الإسلامي كله، وأحياناً تجاوزاته، فقد احتج معظم كتاب القرن الخامس عشر بعدم التحولات العسكرية والقمعية والحوادث الوبائية للسلطات وأضاح الشكان من أمراء ووزراء بتفاصيلهم الدقيقة في القاهرة أو دمشق، وبدرجة أقل في المدن الأخرى كحلب والقدس وطرابلس الشام، وبإبادة تراجع الأشخاص المهمين في كل فروع العلم والسلطة، وأحياناً توسيع دائرة اهتماماتهم لتشمل طبقات أخرى من الناس من معاصرهم. وقد أدى هذا الاتجاه التخصصي مكانياً و زمنياً لتقويض المدرسة التاريخية المملوكية المتأنية وانغلاقها على نفسها. وشهد التنافس بين أعلامها الذين أصبح لكل منهم أتباعاً ومردوداً ومؤيدون. وقد تسببت هذا الحرب والتنافس في الكتابة التاريخية ضيقة المدى أصلاً بالكثير من التكرار والإعادة في التدوين والترجمة والتحليل، وبالكثير من التقلص الشخصي بين المؤرخين أنفسهم، الذين احتج بعضهم بالتفتيش عن مثال معاصريه.

لكن هذا الالتقاء وهذ التتوافق والتنافس لم يمنع من ظهور بعض المؤرخين الأقداد الذين مكثوا من تجاوز الظروف الحاضرة والفكرية والسياسية التي وجدوا أنفسهم فيها لكي يبقوا عصرهم في تفكيكهم وتحليلهم ورؤيتهم التاريخية، ولكي ينتجوا تاريخاً متقدمًا، واعياً ومقماراً. ولعل واحداً من أدم هؤلاء المؤرخين العرب الفروسطي وآخرين أصالة وجدية هو نقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المفزعي (1342-1444) ذلك الصوب المتفكر والمتميز في التاريخ الفروسطي لمصر وبلاد الشام، بل وفي التاريخ الإسلامي برمته، الذي طالب مؤلفاته التاريخية مختلف المواضيع من سير وتراث وخطط ورسائل مقتضية في مباحث شتى، والذي أثبت فعلً أنه يملك حسًا تاريخياً حقيقيًا، مغايرًا كل التغيرة للاتجاه التدويدي الذي طبع معظم انتاج معاصرته. ويعود الفضل في ذلك بالمدرجة الأولى للفكر النظري المدق الذي يظهر واضحاً في الكثير من مؤلفاته (إن كان غالباً في بعضها أكثر تقليدية)، حتى أنه يشكل المعلم المنشئ لأشته بما أعظم الباً وهو تاريخ لمدينته القاهرة، ولبضعة مصر.

1 عن أسباب تراجع بعد النشأة في المدرسة التاريخية المملوكية، د.ورفون كارفونسكي، "الدولة المملوكية: النبية والمشروعة من خلال مسالك الأصدار لفصل الله العظيم"، في كتابنا: العربية وإيران: دراسات في التاريخ والأدب من المنظر الإيديولوجي (بيروت، 1993).

Donald Little, Introduction to Mamluk Historiography, p. 73-99.
يعتبر العصر المملوكي من أغزرا العصور الإسلامية في الكتابة التاريخية وأكثرها تنوعاً، فعلى مدى القرنين والنصف من الزمن الذي حكست فيهما طبقة المماليك مصر والشام (1250-1350) ظهرت مئات المؤلفات في التاريخ والسير والتجارب وكتب المسالك والخطوط والموصوفات الكتابية بما تجاوز العصور السابقة واللاحقة حتى العصر الراهن. وإلى هذا فقد نبغ في العصر المملوكي نفسه العديد من الأسماء التي مازالت أعلاها تاريخية حتى اليوم. ففي بلاد الشام هناك أسماء مثل ابن الأثير والجري وابن الصافي والقهاصي والدهلي وأبي شامة وابن العيد وأبي قاضي شهية وفي مصر التحيري وابن دقماقي وابن الفرات والفقهشبي وابن حجر العسقلاني والعيني والمقرزي وابن تجري بري والصخري والسويطي وغيرهم الكثير من استغلالهم بالتأليف التاريخي، حتى ليخلل المرء أن الاهتمام بالخريج قد فاق كل اهتمام علمي في ذلك الصحراء. يمكننا بصورة عامة تقسيم الكتابة التاريخية في العصر المملوكي إلى فترتين من ناحية الشمولية التاريخية: الفترة الأولى وهي التي تغطي عموماً القرن الثالث عشر والرابع عشر، وقد تمتبت الكتابة تغطية العالم الإسلامي ككله في مسرح التاريخ والزمان الإسلامي. المهمة المجدية ومن ثم الفاترة الثانية التي تغطي القرن الخامس عشر بعضاً من